الفصل الرابع

عن الدبلوماسية القديمة والجديدة

اعتمدنا فى هذا الفصل على:

- Horold Niclson,"TheEvolution of Diplomatic Metheds"
- " Diplomacy in AChanging World" Edited By: Kertesz&Fitzsinons.
- ABBA IBAN,"Diplomacy".
- Rbort Moore,"Third World Diplomat IN Dialogue With The First Word".

يعرف مؤرخ الدبلوماسية الشهير هارولد نيكلسون الدبلوماسية القديمةبأنها دبلوماسية المدرسة الفرنسية التى صاغتها نظرية وممارسة ريشيليوRichelieu،وكاليرزCallieres وهى الدبلوماسية التى تبنتها البلدان الأوروبية خلال القرون الثلاثة التى سبقت التحول الكبير الذى حدث عام ١٩١٩ . وينظر نيكلسون إلى هذه الدبلوماسية كأفضل الأساليب لإدارة العلاقات بين دول متمدنة. فقد كانت فى رأيه دبلوماسية كيسة، ووقورة، وتتصف بالاستمرارية والتدرج معا، وتعطى أهمية للمعرفة والخبرة، وتأخذ فى الاعتبار حقائق القوة القائمة، وجعلت من الثقة وحسن النية والوضوح والدقة الصفات الجوهرية لأى مفاوضات سليمة، أما الأخطار والحماقات والجرائم التى تراكمت خلال هذه القرون الثلاثة وأضعفت الثقة فى الدبلوماسية القديمة فإنها فى رأى نيكلسون إذا فحصت بدقة فسنجد أنها تعود للسياسة الخارجية الشريرة وليس لأساليب إدارتها وتنفيذها.

والدبلوماسية القديمة هى التى تولاها الدبلوماسيون المحترفون Professional Diplo-mats لفترة ماقبل الحرب العالمية الأولى، ولسوء الحظ فإن نصيحة هؤلاء الحكماء لم يُلتَفت إليها فى مؤتمرات فيينا وبرلين، ولم تُستثمر خدماتهم فى الوقت الذى تولت فيه ضروب من النفوذ والتأثير البعيدة عن الدبلوماسية زمام الأمور.

وقد كانت الصفة اللصيقة بالدبلوماسية القديمة والمميزة لها هى السرية وخاصة فى المفاوضات الأمر الذى يختلف تماما عن دبلوماسية المؤتمرات العامة Public CONFER-ENCES التى أصبحت ملازمة للدبلوماسية منذ عام ١٩١٩ . فى الدبلوماسية القديمة كان السفراء هم الذين يتولون ويباشرون عملية التفاوض حول عقد معاهدة مع الحكومة المعتمدين لديها، وعلى هذا فقد كان السفير يعرف الساسة الذين سيتفاوض معهم معرفة مباشرة، ويعرف نقاط قوتهم وضعفهم وإمكان الاعتماد عليهم أو العكس، وكان على علم كامل بالمصالح المحلية وبالخبرات والطموحات والشعاب التى كان عليه أن يبحر فيها، وكانت مقابلاته المتكررة مع وزير الخارجية لاتثير الاهتمام لدى الرأى العام باعتبارها عملا روتينيا ، ولذلك كانت مناقشاتهم تظل خاصة وعقلانية وودية، وبطابع سريتها لم يكن هناك خطر من ظهور توقعات عامة حولها خلال مراحل تقدمها، ذلك أن كل المفاوضات تتكون من مراحل ونتائج فإذا أصبحت المراحل موضعا للنقاش العام قبل أن يتم الوصول إلى نتيجة فإن المفاوضات غالبا ماستترنح. فالمفاوضة هى أساسا موضوع للتنازل والتنازل المتبادل، فإذا ماتسرب التنازل المقدم من جانب أمام رأى عام لا يعرف عن التنازل المقابل

والمتوقع، فإن تشويشا كبيرا يمكن أن يحدث وقد ينهى المفاوضات. بالإضافة إلى ماعبر عنه أفضل دبلوماسى محترف لهذا القرن وهو TulesCombon ، إن السفير فى الدبلوماسية القديمة كان يتفاوض وهو متحرر من ضغط الوقت. وتبدو إنجازات الدبلوماسية القديمة فيما حققته مفاوضات فرنسا وروسيا وألمانيا والنمسا وإيطاليا وتحت رئاسة السير إدوارد جراى، حيث استطاعوا أن يصلوا إلى تسوية لأزمة البلقان عام ١٩١٣، وقد كان سفراءهم فى المفاوضات يعكسون خلافات قومية خطرة وحادة، إلا أنهم كانوا يمتلكون الثقة كاملة واستقامة وأمانة وتعقل وحذر ورشد، وكان لديهم مستوى مشترك للسلوك المهنى، وكانوا يرغبون قبل كل شىء فى منع أى إشعال للموقف، وكان الهدف العام للدبلوماسية القديمة التى سادت فى القرن ١٩ هو الاستقرار الأوروبى وليس المساواة العالمية، وقد تحقق هذا الهدف من خلال الاتفاق الأوروبى عام ١٨١٥ الذى حقق لأوروبا مائة عام تقريبا من السلام وكان أبطال هذا الإنجاز هم رجال الدولة ودبلوماسيون مثل بسمارك ومترينخ وكاسترله، وبخلاف حرب القرم فإن القوى الكبرى فى هذا الوقت: انجلترا، فرنسا، بروسيا، روسيا، النمسا، وإيطاليا، لم تشترك فى حرب بينها إلا لمدة ١٨شهرا، فى الوقت الذى شهد القرنان الماضيان ٦٠-٧٠ من الحروب الكبيرة بين القوى الرئيسية. غير أننا يجب أن نلاحظ أن هذه المائة عام من السلام - والتى تثير شجن وحنين الدبلوماسيين والساسة فى الأجيال التالية، قد قامت فى ظروف استثنائية وأساس نتيجة لتوازن القوى، ووجود شبكة من المصالح المتبادلة فى التجارة، كما كان عدد الفاعلين فى المسرح الدولى قلة، وقدم لهم صغر القارة الأوروبية فرصة التفاعل السريع، حيث زادت الألفة بين رجال الدولة والسفراء والتى تجاوزت الحدود القومية. ومع بلاطهم الملكى الذى كان نشطا بشكل خاص فى الدبلوماسية، كون رجال الدولة والدبلوماسيون مجتمعا ارستقرطيا تجاوز القوميات، وكان هذا هو عنصرهم الذهبى، وخلق التقدم الاقتصادى مع استمرار السلام سحرا يوتوبيا جعل كاتبا كبيرا مثل فيكتور هوجو يكتب عن «موت الحرب».

غير أنه مع مطلع القرن العشرين بدا أن النظام الدولى سوف يتميز بالاضطراب العنيف لا بالتناسق والاستقرار، وقد أزاحت الحرب الأولى ٤ إمبراطوريات كبرى من القوى السبع التى كانت على المسرح الدولى قبلها. وكان على الدبلوماسية التقليدية فى جوهرها أن تهيئ نفسها وتتكيف مع عصر ثورى جديد وكان التجديد الحاسم فى هذا العصر هو إنهاء

الاحتكار الأوروبى نتيجة لدخول الولايات المتحدة فى المجموعة الصغيرة للأعضاء الكبار فى المجتمع الدبلوماسى. ورغم أن هذا التطور قد بدأ بالاتجاه الانعزالى الذى ساد الولايات المتحدة، وحيث كان هذا الاتحاد يود لو لم يكن للعالم الجديد سياسة خارجية على الإطلاق ابتعادا عن مشاكل أوروبا وصراعاتها وحروبها، وكان شعبها يريد أن يضع التجربة الأوروبية وراء ظهره، وأعلن جون آدمزأن عمل أمريكا مع أوروبا هو التجارة وليس السياسة أو الحرب ، وحتي عام ١٩٠٦ كان للولايات المتحدة ٦ سفارات فى الخارج والباقى مفوضيات. غير أن هذا الاتجاه الانعزالى لم يصمد أمام التطورات التى أرغمت الولايات المتحدة أن تندمج فيها وتصبح هى ودبلوماسيتها من العوامل المؤثرة فى توجيه الحياة والدبلوماسية الدولية إن لم تكن هى العامل الحاسم فيها.

وقد توافق مع هذا التطور بدء تعرض الدبلوماسية القديمة أو التقليدية وأساليبها لهجوم مستمر منذ الحرب العالمية الأولى واستمر هذا الهجوم الذى صحبه تطورات، جذرية فى البيئة الدولية، حتى كادت الدبلوماسية القديمة أن تُنبذ منذ نهاية الحرب الثانية. ويلخص هانز مورجانتو الحجج التى استند عليها الهجوم على الدبلوماسية القديمة فى:

١- فقد اعُتبر أنها مسئولة عن الكوارث السياسية التى حاقت بالبشرية خلال الحقب التى سيطرتَ فيها أساليبها، والمنطق يقول أن الأساليب التى ثبت عدم صحتها يجب أن تستبدل.

٢- أن الدبلوماسية التقليدية إنما تتعارض مع مبادىء الديمقراطية، لذلك كان علي الدبلوماسية أن تكون مفتوحة ومعرضة للفحص فى كل عملياتها.

٣- أن الدبلوماسية التقليدية بشكلياتها غير ذات جدوى ومضيعة للوقت، ومتعارضة بمساوماتها مع المبادىء الأخلاقية.

أما العوامل الحاسمة التى أدت إلى تراجع الدبلوماسية القديمة ونشوء الدبلوماسية الجديدة فكانت نتيجة ثلاثة تطورات رئيسية غيرت من تكوين العائلة الدولية، وطبيعة الاهتمامات الدولية ومن ثم أهداف العملية الدبلوماسية، ثم تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.

فبالنسبة للعامل الأول فقد كان عدد الدول التى تمارس العملية الدبلوماسية وتتركز فيها عند بداية نظام الدولة الحديثة عند منتصف القرن السابع عشر، ١٢ دولة أوروبية،

ومنذ هذا الوقت تضاعف هذا العدد عدة مرات. ففى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر حدث تحول أساسى حيث حصلت الولايات المتحدة ١٥ دولة لاتينية علي الاستقلال الأمر الذى ضاعف من الدول المكونة للمجتمع الدولى واتسعت الساحة الدبلوماسية حيث شملت نصف الكرة الغربى. ثم حدث نمو مفاجىء وإن كان بطيئا فى منتصف القرن ١٩ حين انضمت إلى المجتمع الدولى الصين،واليابان وعدد من دول أمريكا الوسطى وليبيريا، ونما هذا التوسع بشكل أكبر بعد الحرب العالمية الأولى خاصة فى البلقان وجنوب شرق أوروبا والشرق الأوسط حيث بلغ عدد الدول إلى مايقرب من ٦٥ دولة. غير أن العائلة الدولية شهدت أكبر توسع لها نتيجة لموجة الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية حين انضم ٧٥ عضوا جديدا خاصة من العالم العربى، وأفريقيا وآسيا والباسيفيك وحيث وصل عدد الدول التى تتمتع بعضوية الأمم المتحدة ١٨٥ دولة. وبطبيعة الحال نتج عن هذا التوسع فى العائلة الدولية توسع كبير فى الصلات والعلاقات الدبلوماسية، والمفاوضات، والأجهزة الدبلوماسية.

أما العامل الثانى فى نشوء الدبلوماسية الجديدة فقد تمثل في التغير النوعي فى الاهتمامات الوظيفية للدول والمجتمع الدولي، وهو التغيير الذي نجم عن تقلص الحدود بين الدول، والثورة الصناعية وتزايد الاعتماد علي التجارة وتنوعها، والاكتشافات العلمية، والتداخل المتزايد بين الدول في الشئون الثقافية والمالية والاجتماعية، وبدت علي الحكومات أن تتعامل مع نطاق واسع من القضايا والمشكلات، فحيث كانت اهتمامات الدول ومن ثم جهازها الدبلوماسى تنحصر فى القرن ١٩ فى عدد محدود من القضايا مثل قضايا السلام والحرب والاستراتيجية، وحماية المواطنين فى الأراضى الأجنبية، ومشكلات الصيد وحقوق الملاحة والتجارة، وتسليم المجرمين، أما ماعدا هذا فكان يعتبر من قبيل الـ Lowpo-lieics التي إن أثارت الاهتمام فهى تترك للمستويات الوظيفية الأقل.

أما اليوم فقد اتسع نطاق اهتمامات الدولة بشكل أصبح يشمل، إضافه إلى الاهتمامات التقليدية، قضايا مثل الطعام، والطاقة، والمياه والبيئة، والسكان والهجرة، ومقاومة الإرهاب، والسكان، والانتشار النووى، والأمراض.

وقد جاءت ثورة الاتصالات والمعلومات لكى تحدث تغيرا نوعيا في طبيعة وأدوات الدبلوماسية فى ظهور الدبلوماسية الحديثة، فالثورة التكنولوجية فى مجال النقل والاتصالات أصبحت تسمح بإجراء اتصالات طويلة ومشاورات بالبرقيات والفاكس والخط

الساخن الذى يربط الرؤساء خاصة، وأصبح من الممكن عقد مؤتمرات وحوارات عبر الاتصالات السلكية واللاسلكية والأقمار الصناعية، ومكن هذا المتفاوضون وهم على مائدة المفاوضات الاتصال بعواصم بلادهم والحصول على توجيهات صناع القرار في عواصمهم. كما كان لثورة المعلومات وسرعة نقلها عبر الشبكات والقنوات التليفزيونية تأثير حاسم على عمل الدبلوماسى وكمية المتاح له من الأخبار والمعلومات والتقييمات، وجعله فى مركز الأحداث العالمية وهو فى مكتبه، وجعله هذا فى سباق مع الزمن لكى يلاحق هذه الأحداث ولايتخلف عنها.

أما السبب الخامس الرئيسى لظهور الدبلوماسية الحديثة فهو بروز تصور أكثر ديمقراطية للعلاقات الدولية، بحيث كانت إدارة العلاقات الدولية خلال عصر الدبلوماسية القديمة والتقليدية توكل إلى صفوة من الرجال المختارين التى تتفاوض وتقرر سياسات بلادها وعلاقاتها، وهو ما تغير فى ظل نظم الحكم الديمقراطية حيث أصبح الرأي العام ذا تأثير بالغ على صانع السياسة ومنفذها من خلال وسائل الإعلام، والأحزاب والاجتماعات الشعبية والبرلمانات والمظاهرات وصناديق الاقتراع. وهكذا أصبحت الدبلوماسية ذات طابع ديمقراطيDemocratised Diplomacy بحيث أصبحت تسمى أحيانا بالدبلوماسية الشعبية People Diplomacy بما يعنى نفوذ وتأثير الأجهزة الشعبية والتمثيلية على العلاقات الخارجية وإدارتها.

وإذا كانت هذه هى العوامل الرئيسية فى التحول الذى حدث فى الدبلوماسية ونقلها من طبيعتها ومنهجها ومضمونها التقليدى الكلاسيكى إلى الدبلوماسية الجديدة ذات المضمون- والذى إن ظل يحتوى عناصر من مضمون الدبلوماسية القديمة، إلا أنه ازداد اتساعا وتنوعا فى موضوعاتها وغاياتها، كما اختلفت كذلك فى مناهجها وأدواتها، إذا كان الأمر كذلك، فما هى أهم الخصائص التى أصبحت تميز الدبلوماسية الجديدة والمعاصرة؟

لقد أظهرت العوامل التى كانت وراء هذا التحول عددا من خصائص الدبلوماسية الجديدة، فقد أصبحت تعمل مع بيئة دولية أكثر اتساعا وتعددا وتنوعا من التى كانت تعمل فيها الدبلوماسية القديمة، وأصبحت أدواتها أكثر سرعة وحركة بشكل يفوق بمراحل أدوات وحركة الدبلوماسية القديمة، واتسع نطاق القضايا والموضوعات التى تعالجها وينشغل بها الدبلوماسي وتشكل جدول أعماله اليومى، كما أصبحت تعمل فى ضوء

العلانية وتأثير ومتابعة وسائل الإعلام، وكذلك تحت تأثير المؤسسات الديمقراطية ويقظة الرأي العام.

بالإضافة إلى هذه الخصائص المرتبطة بعوامل التغيير التى طرأت على الدبلوماسية، ثمة خصائص أصبحت من المعالم الرئيسية للدبلوماسية المعاصرة. من أهم هذه المعالم أن الدبلوماسية اليوم أصبحت مايمكن تسميته الدبلوماسية الشاملة أو الكاملة Total Dlplo-macy. فلم يعد الدبلوماسى قانعا بممارساته التقليدية من حفلات ومآدب عشاء وغذاء واستقبالات، أو بكتابة التقارير والتحليلات والتنبؤات، إنما أصبح الدبلوماسى اليوم هو الذى يدير وينسق، نطاقا عريضا من النشاطات والاهتمامات العريضة لبلده المعتمد فيه وبحيث يمكن القول أن الدبلوماسى الحديث يجب أن يتوقع أن يعالج كل مظاهر الحياة البشرية إذ أن كل مظهر للوجود البشري أصبح اليوم تقريبا له بعض الأبعاد الدولية. الأمر الذى جعل من الدبلوماسية التى كانت يوما ما عملا بسيطا عملية معقدة ليس فقط نتيجة للعدد المتزايد من المشكلات والقضايا المعقدة والمتشابكة التى تواجه الدول منفردة والمجتمع الدولى، وإنما أيضا بالعدد المتزايد من الدول.

أما المَعلَم الثانى والهام الذى أصبح يميز الدبلوماسية المعاصرة أصبحت تسمى بالدبلوماسية الترابطية Associative Diplomacy ،وهى الصفة التى نجمت عن النمو المستمر فى تكوين المجموعات الإقليمية والدولية Groupings، وهو الاتجاه الذى يقصد به هذه المجموعات أن تشكل علاقات سياسية او اقتصادية أوثق مع دول أخري تربطها بها روابط استراتيجية وسياسية واقتصادية وتجارية. ويبدو هذا الاتجاه واضحا فى توسيع وتعميق مجموعات كانت قائمة مثل السوق الأوروبية المشتركه EEC والتى توسعت لكى يصبح الاتحاد الأوروبى EU وأصبحت تضم اليوم ١٥ عضوا ولم تتسع فى العضوية فقط وإنما كذلك فى طبيعة الروابط بينها بحيث أصبحت تتجه وفقا لمعاهدة ماسترخيت ديسمبر عام ١٩٩١ إلى الوحدة السياسية والنقدية والاقتصادية. وعلى المستوى الآسيوى، نجد رابطة دول جنوب شرقى آسيا الآسيان Association of South East (ASIAN) Nations Asian ومنتدى التعاون الاقتصادى لدول آسيا والباسفيك AsiaPacificEconomic Cooperation (APEC) ثم تجمع الـ NAFTA: الذى يضم الولايات المتحدة، وكندا، والمكسيك.

بالإضافة إلى ظهور تجمعات فرعية Sub-Groupings فى النطاق العربى: مجموعات الدول الخليجية التى تجمعها مجلس التعاون الخليجىGcc ، والدول المغاربية التى يجمعها اتحاد المغرب العربى، وفى النطاق الأفريقى: مجموعة دول غرب أفريقيا ECAWAS، مجموعة الجنوب الأفريقى SADAC، وفي الإطار اللاتينى مجموعة الميكروسول Micro-soleوهى المجموعات الفرعية التى تعمل بجوار المنظمات الإقليمية الأوسع مثل: منظمة الجامعة العربية، ومنظمة الوحدة الأفريقية، ومنظمة الوحدة الأمريكية.

ويتطور على مدي الحقبتين الماضيتين نمو ملحوظ للدبلوماسية المعاصرة، وخاصة حول قضايا اجتماعية واقتصادية وفنية، أو ما أصبح يعرف بالقضايا العالميةGlopal Issues وهى القضايا التى أصبحت عمليا تشكل جدول أعمال للاهتمامات الملحة للمجتمع الدولى وتفرض بطبيعتها المتشابكة وآثارها الممتدة التى تتعدى حدود الدول بل والقارات، ويصبح من الصعب على دولة واحدة مهما كانت إمكانياتها أن تواجهها منفردة، ولهذا تتطلب جهدا وتنسيقا جماعيا، ومثل هذه القضايا هى التى أنعقدت حولها- وتأكيدا للصفة الدولية لها تحت رعاية الأمم المتحدة، مؤتمرات مثل البيئة، والسكان والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، وحقوق الإنسان، والمرأة إلى جانب قضايا عريضة أخرى تنتظر وتتطلب جهدا دوليا جماعيا مثل: الإرهاب الدولى، والجريمة، والهجرة والأمراض، والتلوث والانتشار النووى ..إلخ.

وقد فرضت هذه المهام الجديدة، على الأجهزة الدبلوماسية أن تعيد تنظيم هياكلها وأولوياتها بحيث أصبحت الإدارات والأقسام التى تعالج هذه القضايا لها الأولوية على غيرها من الإدارات التقليدية التى تعالج القضايا السياسية، وانسحب هذا على الأفراد الذين يتولون هذه المهام، وأصبح هناك تنافس بين أعضاء الأجهزة الدبلوماسية على العمل والتخصص فى هذه الأنشطة الجديدة، والتى أصبحت تتطلب ثقافة وتكوينا جديدا، وأصبح ترتيب حضور مثل هذه المؤتمرات وكذلك احتمال تنظيمها موضوعيا، وإداريا، وفنيا من أهم مايشغل وزارات الخارجية والتى تتولى مسؤلية هذه المؤتمرات الدولية التى تعقد فى بلادها حتى تلك التى تعالج قضايا بعيدة عن القضايا السياسية التقليدية. سواء من حيث المشاركة الدولية فيها أو من ناحية التنظيمية واعداد الكوادر الفنية اللازمة: السكرتارية، والترجمة، ومصاحبة الوفود الزائرة..إلخ.

غير أنه مع الأهمية التى أصبحت للدبلوماسية المتعددة فى مثل هذه القضايا العالمية لتأثيرها المتزايد علي فرص استقرار السلام والأمن الدوليين، إلا أن الدبلوماسية المتعددة أصبحت تمارس الآن بشكل متزايد فى مجال هام آخر وهو العمل على تحقيق حلول للصراعاتConflict Resolution خاصة بعد أن تعقدت مثل هذه الصراعات وتعمقت بدخول عوامل عرقية ودينية، وبعدأن بات من الصعب على دولة واحدة- حتى ولو كانت قوة كبرى أن تحقق بمفردها حلا لمثل هذه الصراعات.

غير أن الخبرة قد أظهرت أن فعالية الدبلوماسية المتعددة فى تحقيق حلول لهذه الصراعات يرد عليها قيود عديدة أو سوف تظل عاجزة تقريبا طالما أصرت أطراف الصراع علي إدارة صراعهم بالوسائل العسكرية، ولا تبدأ الدبلوماسية المتعددة فى ممارسة دور فعال إلا بعد أن تستنفذ أطراف الصراع جهودها العسكرية وتصل المواجهة العسكرية بينهم إلى مرحلة الجمود Deadlock،كما تظهر خبرات الصراعات فى الشرق الأوسط، وكمبوديا، وأنجولا وأخيرا فى البلقان.

ولعل من أهم ماأصبح يميز البيئة الدبلوماسية الجديدة هو تأثرها بوسائل الإعلام والعلانية التى تفرضها عليها. ويسجل مؤرخو الدبلوماسية بدء تصدع نظام الدبلوماسية القديمة بتراجع طابع التكتم والسرية والخصوصية التى كانت تتميز بها العملية الدبلوماسية، وخاصة أهم جوانبها وهى المفاوضات. وثمة أمثلة حديثة تظهر تأثيرها وسائل الإعلام على الاتصالات الدبلوماسية وخاصة خلال الأحداث الدقيقة، وقد بدا هذا واضحا خلال أزمة الرهائن الأمريكيين فى إيران وحيث كانت الاتصالات حولها والجانب الأمريكى تحت ضغط إثارات وسائل الإعلام ومتابعاتها لحظة بلحظة للأزمة، كما بدا ذلك أيضا خلال أزمة الخليج والتى كانت فيها وسائل الإعلام طرفا أساسيا ومؤثرا فى اتجاه الأزمة وتناولها. وخلال عملية التفاوض وجلساتها يعمل المتفاوضون وفى أذهانهم ماذا سيقولونه لأجهزة الإعلام ومراسليها الذين يتربصون بهم ويلاحقونهم بعد انتهاء كل جلسة ويعلم كل جانب أنه وهو يخاطب وسائل الإعلام عن مجرى المفاوضات وماحققته من نجاح أوفشل، إنما يخاطب الرأي العام فى بلاده بكل اتجاهاته ومواقفه من موضوع المفاوضات. ولعل إدراك تأثير ذلك على عملية التفاوض وإمكانيات نجاحها هو الذي يدفع إلى ترتيب إجراء المفاوضات وخاصة حول القضايا المعقدة والشائكة في معزل تام عن عيون أجهزة الإعلام وهو ما رأيناه فى مفاوضات كامب دافيد حول قضية الشرق الأوسط، وكذلك

حول جو العزلة والسرية المطلقة التى أحاطت بالتفاوض بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية للتوصل إلى إتفاق إعلان المبادىء واختيارهم بيئة فى أقصى الشمال الأوروبى وهى النرويج لعقد هذه المفاوضات، كما تم ترتيب نفس الأجواء المنعزلة للمفاوضات التى عقدت فى دايتون بولاية أوهايو الأمريكية بين الأطراف المتصارعه حول البوسنة والهرسك.

على أية حال فإذا كان النظام الدبلوماسى يعيش الآن عصر الدبلوماسية الجديدة بمكوناتها وخصائصها التى أسلفناها، إلا أن علينا أن ندرك أنه من المنظور النظرى والعملى فإن الدبلوماسية كأى مؤسسة بشرية هى عملية ديناميكية تتعرض لتغيرات الزمن ومايأتى به من قوى ومؤثرات جديدة، لذلك نجد أن كل عصر يمر بتجديد جوهرى فى أساليبه وصيغه الدبلوماسية، الأمر الذي يتوقع معه بعض مؤرخى دبلوماسية أن صيغة اليوم من الدبلوماسية التي نصفها بأنها جديدة يمكن تختلف عن تلك التى سنجدها فى المستقبل.

والواقع أنه في معالجتنا للواقع الذى تعمل فيه الدبلوماسية الجديدة والقوى التى تتفاعل معها، فتتأثر بها وتؤثر فيها، فإننا لايجب أن نغفل قوى للتأثير أصبح لها تداخل واضح مع الدبلوماسية ونعنى بها كلا من الإعلام Media وأجهزته، وكذلك المؤسسات الأكاديمية وشخصياتها Academia:

الإعلام والدبلوماسية

فقد أصبحت الصحافة بوجه خاص ووسائل الإعلام الأخرى وخاصة الإذاعة والتليفزيون، من العوامل المؤثرة التى يعمل حسابها فى العلاقات الدولية فى عالم اليوم. والهدف الرئيسي للصحافة هو نقل المعلومات للجمهور المتعلم، وهى فى هذا عكس الدعاية Propaganda والتى تهدف الى أن تفعل كل ماهو ضروري للتأثير على العقل العام فى الاتجاه الذى تهدف إليه الدعاية. وفى كل دستور ديمقراطى فإن حرية الصحافة معترف بها ومضمونة. والصحافة الحرة فى بلد ما يفترض أنها تدخل وتوزع المعلومات دون خوف أو مبالاة وبدون تدخل من جانب أى سلطة أيا كانت، وعلى هذا فإن حرية الصحافة هى رمز على الفكر الديمقراطى. وعلى هذا فإن سلطة رابعة قوية سوف تمارس دائما تأثيرا هاما على الفكر السياسى والاقتصادى وفى الواقع على الرأي العام ككل. وقد تأكد هذا الدور الذى تقوم به الصحافة مع ارتفاع نسبة التعليم فى العالم، وما أصبح الرجل العادى فى أى مكان فى العالم يعتقده حول حرمة الكلمة المطبوعة وهو بهذا يعتبر أن أى رأى

وتعليق مطبوع فى جريدة يجب أن يكون صادقا، وهكذا فإن الصحافة تقوم بواجب هام جدا فى تعليم الرأى العام ونقل الأخبار الصادقة ووجهات النظر الصحيحة إليه، ولهذا فإذا كانت الصحافة غير حرة أويساء توجيهها فى تحمل مسئولياتها فإنها من المحتمل أن تؤدى إلى نتائج خطيرة.

أما فى البلدان ذات الديمقراطيات الموجهة أو التحكم فيها من جانب الدولة، فإن الصحافة تستخدم كآداة للترويج لأهداف الحزب الحاكم ورجاله. وفى الدول الشموليةTotalitarian فإن الصحافة تقع تحت سيطرة الدولة طالما أن السياسات التى توجه هذه النظم هى توجيه الفكر والعمل وفقا لمبادىء ونظريات هذه النظم إنما تستهدف بشكل جوهرى إلى تعزيز سلطة الدولة وهى فى كثير من الأحيان خالية من أى تفكير حر أو رأى أمين.

بهذه الرؤية للنفوذ والتأثير الذى تمارسه الصحافة فى مختلف النظم السياسية فى التأثير على الرأي العام وتوجيهه وكذلك فى عكسها لمختلف التيارات والأفكار والمواقف فى النظم الديمقراطية الحرة، ولفكر النظم الحاكمة فى الدول الشمولية، وطالما أن من أول أهداف الدبلوماسى ووظائفه هو أن يكون على إلمام ومعرفة دائمة بالأحداث والاتجاهات فى الدولة المعتمد لديها، ولذلك فإن المتابعة الدقيقة لما تنشره صحافتها تصبح من أهم مهامه اليومية. فى هذا ، يتأثر الدبلوماسى بطبيعة النظام وحالة الديمقراطية ومن ثم حرية أو تقيد الصحافة فى البلد المعتمد فيها. فإن الأمور بالنسبة له قد تبدو أنها أوضح وأكثر تحديدا فى حالة الصحافة التى تتحكم فيها الدولة إذ أنه فى هذه الحالة فإن ماتنشره هذه الصحافة من أخبار أو تعليقات ووجهات نظر إنما يعكس إلى حد كبير ويعبر عن سياسات الحكومة، أما فى الدول ذات الصحافة الحرة فإن الوضع أكثر تعقيدا بكثير حيث أن الصحف تعكس من التيارات والمواقف والآراء والمصالح بعدد تعدد التيارات والأحزاب والقوى السياسية والمصالح الاقتصادية فى هذا البلد. ويترتب على ذلك أن تكون مهمة المبعوث الدبلوماسى فى الحاله الثانية وحيث ماتعبر عنه الصحف لايعكس بالضرورة، مواقف الحكومة ونواياها بقدر مايعكس رؤية ووجهات نظر ومصالح هذه الصحف والتيارات التى تعبر عنها، غير أن هذا لايعنى أن الصحف فى المجتمعات الديمقراطية لاتقدم معلومات يعتمد عليها ومفيدة فى التعرف على الأوضاع والتطورات وكذلك المواقف من القضايا المختلفة، غير أنها تحتاج من الدبلوماسى لقدر غير قليل من الدقة، والحرص على تتبع هذه الأخبار والمعلومات لدى

المصادر الرسمية للتأكد من قربها أو بعدها من الحقيقة وأكثر من هذا من تعبيرها عن المواقف الحقيقية للحكومة. وبمثل هذا تحديا حقيقا للدبلوماسى الذى يمكن أن يقع تحت إغراء خبر هام حول وضع أو تطور محلى أو إقليمى أو دولى، خاصة إذا كان يهم دولته ويتصل بمصالحها ، ويسارع بإبلاغه لدولته أو يبنى عليه تقييماته وتوجيهاته قبل أن يتحقق من دقته وصحته..

فى ضوء هذا الدور الذى تلعبه الصحافة وأجهزة الإعلام الأخرى فى التأثير على وصياغة العقل العام فى مجتمعاتها، وماتمثله من مصادر معلومات، أصبح من الضرورى أن يقيم الدبلوماسى علاقات منظمة، ولكن منضبطة، مع ممثلى الصحافة، وأن يكونوا دائما على قائمة دعواته ومناسباته الاجتماعية، بل وكذلك لقاءات دورية محدودة خاصة مع المعلقين وكتاب الرأى وبالأخص على المهتمين والمتخصصين فى شئون بلاده ومنطقتها، ومثل هذه اللقاءات يقدم فيها الدبلوماسى مادة يعتمد عليها مثل هؤلاء الكتاب والصحفيين والمعلقين فيما يكتبونه عن قضايا تهم الدبلوماسى، وتأخذ هذه المادة عدة مستويات ابتداء من الـ Backgroumd Imformatiom حول خلفيات وأصول تطور سياسة ما، حتى تفسير دوافع وحقائق حدث قائم والhعتبارات التى تحكم بلاده منه ، ومثل هذا الشرح يساعد على أن يجنب الكاتب سوء الفهم أو سوء التقدير أو ربما تسوية هذا الموقف. ولا يقتصر مايجب أن يطوره الدبلوماسى من قنوات اتصال مع ممثل الصحافة على الكتاب والمعلقين السياسيين، بل يجب أن يشمل المتخصصين منهم فى مجالات قد لاتقل أهمية عن الشئون السياسية مثل الثقافة، والسياحة، ومن يكتبون فى شئون المال والاقتصاد بل والرياضة، وجميعها مجالات أصبحت تتصل بالاهتمامات اليومية للدبلوماسى وباهتمامات بلاده وتمثل نسيج علاقاتها بالدولة التى يعمل فيها الدبلوماسى.

الدبلوماسية والمؤسسات الأكاديمية

ثمة توتر تقليدى ومعروف- فى كل فروع المعرفة والنشاط البشرى- بين أصحاب النظريات Theroists وجامعاتهم ومراكزهم البحثية، وبين الممارسين Practicioners الذين يعملون فى الحقول العملية والتنفيذية وخاصة الذين يديرون شئون الحكومات وينفذون برامجها وسياساتها. وقد بدا هذا التوتر بين الجانبين بشكل أوضح فى مجال العلاقات الدولية والسياسات الخارجية وأداتها المنفذة لها وهى الدبلوماسية وممثليها. وتقليديا نشأ

جدل دائم دافع كل جانب عن قضيته ووجهة نظره، المستقبلية بالدبلوماسية يتملكهم الشك حول صلاحية نظريات الأكاديميين لتطبق فى حالات محددة، فالنظريات عندهم ليس لها إلا دور أصغر تلعبه فى صياغة السياسات من الحقائق فى الاقتراب من الدبلوماسية ومجالاتها الدقيقة والتى تخضع لاعتبارات معقدة بأفكار ونظريات محددة ثابتة لا يمتلكون المرونة الضرورية للتعامل مع عالم متغير، وقد يضطرون أمام هذا العالم إلى الرجوع عن نظرياتهم المسبقة أو تطويرها(*). ويرد الأكاديميين بقوة على هذا بأن الدبلوماسيين يميلون إلى إضفاء القداسة على الأوضاع التى يعملون فيها الأمر الذى يجعلهم مترددين فى أن يعترفوا بأن هذه الأوضاع يمكن أن تتعرض بسرعة للتغيير الجذرى، فطالما أنهم معتمدون لدى نظم قائمة فإن التيارات الثورية تقع خارج نطاق واجبهم ولهذا فهم يفاجأون حين تنفجر فجأة هذه النظم. كما ينتقد الأكاديميون الشكليات التى يربط بها الدبلوماسيون أنفسهم والتى تأخذ جانبا كبيرا من وقتهم وتجعلهم غير قادرين على التجديد ويرد الدبلوماسيون بأنهم إذا كان تفكيرهم لايتسم بالدقة فإن هذا لايرجع إلى كسل عقلي وإنما لأن الدبلوماسية هي فى الحقيقة علم دقيق، وفى تعبير أحد الدبلوماسيين «إن الرجال يتصرفون فى الدبلوماسية لأن من واجبهم ذلك، فبدائلهم مقيدة، وخياراتهم تحيط بها العوائق، والأرض التى يقفون عليها ليست تماما من اختيارهم».

هكذا حكمت العلاقة بين الأكاديميين والدبلوماسيين شعورا بأنهما يمثلان عالمين متباعدين كلا منهما قاصر على نفسه ومغلق على الآخر، فعالم الدبلوماسية والسفراء هو عالم السرية والغموض والمراوغة والإخلاص للمفاهيم المطلقة المقنعة بالعبارات النسبية، أما الوسط الأكاديمى فهو يتميز بالوضوح والتكامل والجرأة وحب المشاكسة وحرية التفكير والتعبير.

غير أن هذا التوتر والجدل التقليدى بين الأكاديميين والدبلوماسيين بدأ يتحرك نحو التلاقى وإدراك كل جانب أنه فى حاجة للآخر، فالأكاديميون بدأوا يدركون أنهم فى حاجة إلى الخبرة والممارسة العملية للدبلوماسية والتى تظهر لهم كيف تتحقق نظرياتهم فى الواقع، ورغم أنه من الصعب تصور أستاذ للجراحة لم يمارس أبدا عملية جراحية واحدة، إلا أن هناك العديد من أساتذة العلاقات الدولية الذين لم يتفاوضوا حول عقد اتفاقية أو

(*) يستطيع أصحاب هذا الرأى أن يدللوا عليه بمثال بارز فى شخص وزير الخارجية الأمريكى الأسبق هنرى كيسنجر والذى جاءت ممارساته الدبلوماسية فى كثير منها مخالفة للكثير مما فكر فيه وماصاغه من نظريات حول عدد من القضايا الدولية خلال مرحلته الأكاديمية.

تنافسوا حول قضية فى محفل دولى. أما الدبلوماسيون فقد بدأوا يدركون أن العلاقات الدولية تزداد تعقيدا وتشابكا وأنها لم تعد بالبساطة التى يمكن الاعتماد فى فهمها على الفطنة والذكاء والمناورة والدبلوماسية، وإن ممارستهم لعملهم الدبلوماسى سوف تكتسب قيمة ومعرفة أعمق بجوانب الوضع الذى يعالجونه أو يتحدثون عنه. وقد يساعد على هذا التلاقى والتطور الواضح فى العقدين الأخريين فى عدد المراكز البحثية والأكاديمية سواء فى داخل الجامعات أو المستقلة، كما يساعد على هذا العناصر الدبلوماسية التى انتمت للمجتمع الأكاديمى بما حصلوا عليه من درجات علمية أوبما يتمتعون به من ثقافة سياسية أوخبرات معترف بها، وقد ساهم هؤلاء فى بناء الجسور بين المؤسسات الأكاديمية والدبلوماسية. ونشهد على الواقع نتيجة هذا التحرك على الجانبين، وإن كان فى رأى البعض يأتى من جانب الدبلوماسية أكثر منه من الجانب الأكاديمى فالأجهزة الدبلوماسية تميل الآن إلى الاستعانة بالخبرات الأكاديمية فى العديد من المؤتمرات فتضم عناصرا منها إلى وفودها الدبلوماسية وخاصة فى المؤتمرات والمحافل التى تعالج قضايا تتصل بالمنظمات الدولية. فالوفد المصرى فى مؤتمر مدريد الدولى للسلام فى الشرق الأوسط-ديسمبر ١٩٩٢-ضم ٤ من أساتذة العلوم السياسية والقانون الدولى وعلم النفس. كما أن اللجنة القومية التى شكلتها الخارجية المصرية للتباحث حول قضية طابا ضمت إلى جانب العناصر الدبلوماسية أساتذة فى القانون الدولى والتاريخ.وفى اتجاه التلاقى والتفاعل بين المؤسسات الأكاديمية والدبلوماسية، أصبح من تقاليد عدد من الجامعات والمراكز البحثية المحترمة وذات التقاليد والمكانة الدولية، أن تسعى لكى تضم إليها فى صورة Fellows أوSenior Felows شخصيات دبلوماسية من التى عرف عنهم امتلاكهم لأساس علمى ومن الذين عملوا وحصلوا على خبرة دبلوماسية من المراكز الهامة التى عملوا فيها وفى مناطق ذات أهمية خاصة مثل: الاتحاد السوفيتى السابق، والشرق الأوسط مع أن عددا من هذه الجامعات والمراكز البحثية وخاصة فى العالم المتقدم أصبحت تقدم منحا دراسية للدبلوماسيين من العالم الثالث بوجه خاص، وترحب وزارات الخارجية- فى بلدانهم بذلك اعتقادا بأن هذا سوف يسهم فى تكوينهم العلمى ويفيد فى أدائهم الدبلوماسى. كذلك أصبح من الظواهر المألوفة دعوة الجامعات والمراكز البحثية للدبلوماسيين لكى يشاركوا فيما تعقده من مؤتمرات وندوات حول قضايا إقليمية ودولية.

وقد أقنعت عدد من التجارب المؤسسات الدبلوماسية أهمية الاهتمام بما تقوم به الجامعات ومراكز الدراسات من أبحاث وماتضمنه من توصيات ومقترحات حول عدد من

القضايا والمنازعات الإقليمية والدولية، ذلك إن ثبت أن بعض هذه الدراسات يمكن أن تتبناها الحكومات والمؤسسات الرسمية أو تستفيد منها فى صياغة بعض مبادراتها فى السياسة الخارجية، فالدراسة التى أعدها معهد بروكينجز موا Brookings Jnstitute فى واشنطون حول النزاع العربى الإسرائيلى فى نهاية السبعينيات، كانت هى الأسس التى بنت عليها إدارة كارتر سياستها تجاه الشرق الأوسط وكان هذا التقرير الأساس الذى طرحته فى مفاوضات كامب دافيد بين مصر وإسرائيل. كما كان العمل البحثى الذى قام به معهد فافو للبحوث الاجتماعية فى النرويج حول الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى الأراضى الفلسطينية المحتلة هو الأساس والمدخل للدور النرويجى فى جمع إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية فى توصلهم إلى اتفاق إعلان المبادىء فى ١٩٩٣.

ومن الخبرات العملية الحديثة، أصبحت مراكز البحث تستخدم، وبرعاية وتشجيع وزارات الخارجية، لترتيب ندوات حول بعض المنازعات الإقليمية، بهدف استكشاف مواقف أطراف النزاع من خلال عناصر أكاديمية ذات صلة بالأجهزة الرسمية. وقد تعكس ـ دون ارتباط رسمى ـ مواقفها. كما أصبحت المراكز الأكاديمية قنوات غير مباشرة لنقل رسائل إلى المؤسسات الدبلوماسية وتلقى انطباعاتها واستجاباتها.

والواقع أن عددا من كتاب الدبلوماسية ومؤرخيها خاصة من دول العالم الثالث، الذين يرصدون هذا التطور فى العلاقة بين المؤسسات الأكاديمية والدبلوماسية يتوقفون بوجه خاص حول مزايا وإيجابية هذه العلاقة بالنسبة لسفراء ودبلوماسيى العالم الثالث من حيث الارتباط بعلاقات إيجابية ونشطة، وصلات منتظمة مع المراكز الأكاديمية وشخصياتها، وخاصة فى العالم المتقدم، من زاوية مايمكن أن تمثله هذه العلاقة من إيجابيات بالنسبة لصالح واحتياجات واهتمامات بلدان العالم الثالث. فهذه المراكز الأكاديمية هى موطن البحث العلمى المتقدم والتخصصات المتقدمة وفى مجالات هامة مثل تكنولوجيا الزراعة والغذاء والمياه والهندسة والإدارة، لذلك فإن نجاح السفير فى ربط جامعات بلد وأساتذتها وباحثيها وطلابها بهذه المراكز الأكاديمية المتقدمة يمكن أن يقدم خدمة جليلة لاحتياجات أساسية لعملية التنمية فى بلد الدبلوماسى النامى. ويتحقق هذا الربط من خلال علاقات تعاون مؤسسية، هى العلاقات التى سوف تتيح تقديم هذه الخبرات أساسا من خلال تبادل الأساتذة والتى ستتيح خاصة للباحثين من دول العالم الثالث التعرف بشكل مباشر على مناهج وأدوات البحث العلمى ونتائجه فى الدول المتقدمة. وحين يكون الأكاديمى والباحث يمثل بلاده فى البلد المعتمد لديها فإن مهمة السفير ومعاونيه إنما تمتد إلى خلق

الفرص لهم وتوسيع دائرة اتصالاتهم وتقديمهم إلى نطاق واسع من المؤسسات المستقلة باهتماماتهم.

ولا يقتصر نشاطات السفير في هذا المجال على الشخصيات الأكاديمية، وإنما تمتد لتشمل الطلاب والدارسين من بلاده الذين يدرسون في الجامعات، فالإبقاء على صلات منتظمة معهم هو أمر حاسم بالنسبة لهؤلاء الطلاب الذين يحتاجون إلى الإحساس بالهوية القومية في بيئة أجنبية، ولذلك فالاحتفاظ بصلات منظمة معهم يساعد على جعلهم على دراية دائمة بالأمور الداخلية لبلادهم ومن ثم تقوية روابطهم بوطنهم. فالسفير وأعضاء سفارته بالنسبة لهؤلاء الطلاب والدارسين هم رمز للسيادة الوطنية واحترامهم لأنفسهم وهو أمر على جانب كبير من الأهمية والحساسية للطلاب، وعلى مستوى آخر فإن السفير لا يمثل فقط حكومته ولكن كذلك مجتمعه واهتمامه برفاهيتهم وبما يحققونه في دراستهم وتوقعهم لعودتهم، وهم ينظرون إلى السفير باعتباره مرجعهم وقناة هامة لاتصالهم بحكومتهم واتصال حكومتهم بهم.

كما يقدم زيارات السفير أو الرجل الثاني له للدارسين من بلده في جامعاتهم فرصا حقيقة للتعرف والاتصال بالتجمعات الطلابية والذين يمكن أن يدعوه إلى ندواتهم والتحدث أمامهم.

غير أن فرصا وفعالية علاقة مثمرة بين سفراء ودبلوماسيي العالم الثالث بالمراكز الأكاديمية في العالم المتقدم تعتمد إلى حد كبير على المستوى المقنع علميا وشخصيا الذى يبدو به هؤلاء السفراء وعلى وضوح وعمق الرسالة التي يحملونها، وسوف يجدون أن الوسط الأكاديمي يفضل أن يستمع إلى سفير بليغ ومؤثر من دولة صغيرة على سفير من دولة كبيرة يكتفي بتكرار مواقف بلاده والبيانات المعروفة لرسمييها. وبهذا المعنى فإن الجامعات تمثل منابر يعتمد على ما اكتسبه من احترام في دعوة سابقة، وهذا الاحترام لايتأتى من البلد التي يمثلها أو المكانة التي يشغلها وإنما بما عكسه من قدرات ثقافية جذابة ومؤثرة وفي لقاءات طلابية تمثل أهمية وخبرة غير مألوفة للطلاب ، فهم يشعرون أنهم على أرضهم وأنهم أحرار في المناقشة وإصدار أحكامهم النقدية، وأنهم يتحدثون مع من يمارسون العمل الدبلوماسي وينفذون النظريات التي يدرسونها ويتعاملون مع الواقع بشكل عاجل، وبإحساس بأن عالم النظريات يختلف عن الواقع لذلك فإن الطلاب ذوى الحساسية والذكاء يحرصون على أن يلمسوا كيف تعمل العلاقة بينهما.